الإبستمولوجيا والتحليل المركب للمفاهيم والظواهر

في العلوم السياسية والعلاقات الدولية

هيام بن فريحة

أستاذة محاضرة (أ) بكلية العلوم السياسية والعلاقات الدولية

جامعة الجزائر 3

ملخص:

أصبحت القضايا الدولية تتسم بالتعقيد والتركيب والتشعب ، وقد انعكس ذلك بشكل مباشر على الكثير من المتغيرات والمفاهيم والقيم السائدة في كافة المجتمعات وما ينتج عنها من مواقف وممارسات تحمل اختلافات وتناقضات يصعب تجاوزها ، وتتضح التناقضات العميقة حين محاولة تجسيد أو مطابقة هذه الأفكار والمفاهيم مع الواقع الدولي المعاصر بما يتميز به من تعقيد، نتيجة تعدد القضايا التي تتجاوز الإطار المحلي أو الإقليمي لتتخذ في كثير من الحالات بعداً دولياً. ولاشك في أن ذلك أصبح يؤثر على كل محاولة لفهم وتحليل الظواهر السياسية بشكل علمي.

في هذا الإطار تحاول هذه الدراسة التأكيد على أهمية اعتماد الإبستمولوجيا والتحليل المركب في العلوم الإنسانية وفي مجال العلوم السياسية بشكل خاص، باعتبارهما ضروريان لفهم طبيعة التفاعلات الجديدة التي تجسدها العلاقات الدولية الراهنة.

الكلمات الدالة:

الإبستمولوجيا، المفاهيم السياسية، العلوم السياسية، التحليل المركب، العلاقات الدولية.

Résumé:

Les questions internationales sont devenues de plus en plus complexes. Cela n'est pas sans influer directement sur les diverses variables, concepts et valeurs qui prévalent dans toutes les sociétés. Cela n'est pas, aussi, sans conséquence sur des attitudes et des pratiques qui expriment autant des différences que des contradictions difficiles à surmonter. Ces contradictions deviennent manifestes lorsqu'on confronte les idées ou les concepts avec la réalité internationale contemporaine, laquelle est marquée par une multiplicité de problèmes dépassant le cadre local ou régional pour prendre souvent une dimension internationale. Il ne fait aucun doute ces différentes considérations affectent toute tentative visant à comprendre et analyser scientifiquement les phénomènes politiques.

Cette contribution met, dans ce contexte, l'accent sur la nécessité de se fonder sur l'épistémologie et l'analyse complexe en sciences humaines et en sciences politiques, en particulier, afin de comprendre la nature des nouvelles interactions inscrites, désormais, dans les relations internationales actuelles.

Mots Clefs:

Épistémologie, concept politique, science politiques, l'analyse complexe, relations internationales.

Summray:

The complexity of international relations and the unpredictable enigmatic nature of certain events directly reflection many variables. The concepts and values of societies and the positions taken by some countries are often contradictory. These positions challenge the scientific analysis of the ideas and concepts used as well as their application to the realities of the societies in question.

In this context, this analysis suggests the importance of implementing epistemology and complex analysis in social science and political sciences in particular.

Key Words:

Epistemology, political concepts, political sciences, complex analysis, international relations.

مقدمة :

تخضع العلوم الإنسانية لخّاصية ترابط موضوعاتها ، فهي تشترك في إهتمامها بالإنسان وعلاقته بغيره ضمن مختلف الأطر التنظيمية التي تسعى لضبط مستويات هذه العلاقة ، مع إختلاف طبيعة هذه العلاقات بحسب المجالات التي يتفاعل معها الناس فيما بينهم ، سواء كانت سياسية أو إقتصادية ، ثقافية أو إجتماعية.. ، ولا شك في أن الكثير من الدراسات التي تقدَّم في إطار هذه العلوم ، تمثل في مجملها إسهاماً معرفياً متكاملاً.

من جانب آخر نلاحظ أن الأفكار والمفاهيم المتداولة في الدراسات الإنسانية تعبر في الواقع عن ظواهر إجتماعية معينة . وبما أن تجارب الأفراد والجماعات تختلف باختلاف البيئات والأزمنة ، فإن ذلك ينعكس بشكل مباشر على محتوى كل مفهوم وكيفية إستخدامه . وعلى ذلك نجد أن جل المفاهيم المطروحة في حقل الدراسات الإنسانية تتميز بعدم الثبات وأنها في تغير مستمر ؛ فقد تندثر مفاهيم وتعوّض بمفاهيم جديدة، وقد يحمل المفهوم الواحد دلالات مختلفة تتباين باختلاف الزمان والمكان و بتغير البيئات الإجتماعية والثقافية [1].

في هذا السياق نجد أن مجال العلوم السياسية والعلاقات الدولية ، و كغيره من العلوم الإنسانية ، يشهد ظاهرة الإختلاف والتغير في المفاهيم والأفكار والقيم السائدة ، ولكن المشكل يبرز في مدى مطابقة هذه المفاهيم و الأفكار والقيم لواقع المجتمعات وقدرتها عن التعبير عن بيئتها الحقيقية ؛ لأنه لا يمكن تصور أن كافة المفاهيم والأفكار والقيم تعبر على كافة المجتمعات على إختلافها ، أو أنها تصلح للتطبيق عليها وبدرجة متساوية . وهذا في الحقيقة يؤدي إلى الصعوبة في فهم وإستيعاب الكثير من المفاهيم المطروحة علينا وما ينتج عنها من تناقضات عميقة ، خاصة مع تباين الطروحات والأهداف ، لأن غالبية المفاهيم هي في الواقع مقدمة من الفكر الغربي أو هي نتيجة للسياسات الغربية بعد أن يتبناها الفكر الغربي ويسعى لفرضها على المجتمعات الأخرى.

وتتضح التناقضات والإختلافات العميقة حين محاولة تجسيد أو مطابقة هذه الأفكار والمفاهيم مع الواقع الدولي بما يتميز به تعقيد نتيجة تعدد القضايا التي تتجاوز الإطار المحلي أو الإقليمي لتتخذ في كثير من

---

[1] حسنين توفيق إبراهيم ، **ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية** ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط2 ، 1999 ، ص : 36-39.

الحالات بعداً دولياً. حيث نجد في توسع ظاهرة الإرهاب الدولي أو تشعب قضايا الهجرة أو البيئة وغيرها ، أمثلة واضحة على التغيّر في طبيعة القضايا والعلاقات الدولية المعاصرة وتشابك مساراتها ومحاورها.

إن التعقيد والتركيب الذي أصبحت تتسم به القضايا الدولية و التناقضات المنجرّة عنها ، إنعكس على الكثير من المتغيرات والمفاهيم والقيم السائدة في كافة المجتمعات ، وأصبح يؤثر بشكل مباشر على كل محاولة لفهم وتحليل الظواهر السياسية بشكل علمي. والمشكل هو أن الخطأ في تشخيص المواقف والممارسات والخطابات السياسية التي تشهدها العلاقات الدولية ، أصبح يظهر بوضوح من خلال عدم قدرة مختلف الفاعلين سواء من الممارسين أو الباحثين في هذا المجال ، على التحكم في مؤشرات الواقع الدولي لتحليلها أو لإدارتها بشكل متوافق مع النظم الإجتماعية والسياسية للبيئات التي تشهد هذه التغيرات . وقد يكون ذلك نتيجة لعجز النظريات المفسرة أو عدم مطابقة المناهج والأساليب المستخدمة ، الأمر الذي يدفع إلى ضرورة التفكير مجدداً في أساليب ومقوّمات البحث المنتهجة والسعي للوصول إلى نتائج أكثر تطابقاً مع الواقع المعقّد للعلاقات الدولية بما فيه من مفاهيم مستخدمة ، لأن الوصول إلى هذه النتائج يتطلب تحليل طبيعة المجتمع الدولي المعاصر بما فيه من قضايا ، وكذلك المفاهيم والأحكام التي يطرحها والتي تختلف في مدلولاتها وأبعادها.

في هذا الإطار تبرز أهمية التوجّه الإبستمولوجي في مجال العلوم السياسية ، باعتباره ضروري لفهم طبيعة التفاعلات الجديدة التي تجسدها العلاقات الدولية الراهنة. وبهذا الخصوص نتساءل : كيف يمكن الإستفادة من التحاليل المعرفية المركبة التي تقدمها لنا الإبستمولوجيا لاستيعاب التغيرات المتواترة والظواهر الجديدة التي يعيشها المجتمع الدولي بما تحمله من صور متناقضة للسياسات الدولية ؟.

إن إشكالية البناء الإبستمولوجي وفق نموذج " التحليل المركب للسياسات والمفاهيم المطروحة في العلاقات الدولية " ، تبرز أهمية إستخدام الإبستمولوجيا لمواكبة التحليل النقدي للبحث العلمي ، والتعليق بصورة عامة على الدراسات العلمية المقدمة في العلوم الإنسانية بشكل عام والعلوم السياسية بشكل خاص ، وذلك من خلال الأطر المنهجية التي تتم فيها.

وهذه المحاولة تأتي في إطار المشاركة في إسهامات الباحثين المواكبين لتطور الفكر السياسي ولكن مع الحرص على الإلتزام بالحفاظ على المبادئ الأساسية التي يقوم عليها المجتمع الدولي مثل سيادة الدول واحترام خصوصيات المجتمعات وثقافاتها ..

ويمكن التطرق إلى أهم المحاور التي تساهم في بلورة هذا التوجه من خلال النقاط الأساسية التالية:

أولاً : الإدراك الحقيقي والمتكامل للظواهر المختلفة في العلاقات الدولية.

ثانياً: إستيعاب المفاهيم المطروحة وتبيّن مضامينها الكامنة.

ثالثاً : مواكبة التحليل النقدي للبحث العلمي بإستخدام الإبستمولوجيا ، نظرية المعرفة وعلم المناهج.

رابعاً: الإستفادة من الإبستمولوجيا والتحليل المركب في مجال العلوم السياسية والعلاقات الدولية.

أولاً : الإدراك الحقيقي والمتكامل للظواهر المختلفة في العلاقات الدولية :

لا يمكن فهم وتحليل ما نلاحظه اليوم من ظواهر متواترة في العلاقات الدولية دون اعتماد رؤية شاملة ومعمقة لما تحتويه من أبعاد مختلفة ، ويتضح ذلك من السمات التالية التي تتميز بها العلاقات الدولية[1]

- **التعقيد والتركيب صفة أساسية في العلاقات الدولية المعاصرة والمفاهيم المواكبة لها :**

إن ما يشهده اليوم المجتمع الدولي من صراعات ، يؤكد الطابع المعقّد والمركّب للأزمات الدولية المعاصرة ؛ حيث أصبحت تمتد إلى فضاءات جيوسياسية كاملة وتجعل خطر التهديد الأمني الإقليمي يصل إلى كافة دول الجوار دون إستثناء. والتطورات التي شهدتها الأزمات أوكرانيا أفي سوريا واليمن وليبيا أمثلة واضحة على ذلك. كما أن هذه الأزمات التي كانت تبدو سياسية ، أصبحت أكثر تعقيداً حين ارتباطها بظواهر أخرى لها إنعكاسات أمنية خطيرة مثل الإرهاب وتدخل الجماعات المسلحة والجريمة المنظمة وغيرها.

- **الطابع المُبهم وغير المتوقع للتغيرات والأحداث الدولية :**

كما أن حدوث تغيرات مفاجئة وغير متوقعة بالنسبة لمختلف القضايا الدولية ، أصبح ظاهرة بارزة في المجتمع الدولي ؛ ويمكن أن نذكر أمثلة كثيرة على ذلك منذ سقوط حائط برلين وانهيار الإتحاد السوفيتي في نهاية ثمانينيات القرن الماضي ، إلى ما يشهده المجتمع الدولي من تغيرات كبيرة خاصة عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 وما ترتب عنها من تداعيات تغيرت بموجبها مصائر شعوب وتحطمت فيها مقّومات دول (العراق وأفغانستان) !.

ولعلّ ما تشهده بعض الدول العربية من تغيرات مفاجئة يقدم مثالاً واضحاً على الطابع المفاجئ والغامض للأزمات الدولية المعاصرة ، بحيث بات من الصعب توقع النتائج التي قد تنجّر عنها. وقد إعترفت الكثير من مراكز الدراسات والأجهزة المتخصصة بحقيقة عدم توقعها قيام موجات التغيير أو الحراك في الدول العربية [2]. حيث إهتزت أنظمة سياسية كان يبدو إستقرارها وثباتها من مسلمات الواقع

---

[1] الأستاذة دامية سكينة : إستخدام الإبستمولوجيا في تحقيق التحليل النقدي الصحيح للظواهر السياسية في العلاقات الدولية ، محاضرة خاصة ، كلية العلوم السياسية ، جامعة الجزائر 3 ، 09 /03/ 2016.

[2] بهذا الخصوص صرّح رئيس جهاز الموساد **يوسى كوهين** ، إن منطقة الشرق الأوسط تشهد تغيرا كبيرا، موضحا أن التهديدات أصبحت واضحة وصعبة بعد الربيع العربى الذى لم يتمكن جهاز الموساد التكهن بها. نقلاً عن : **صحيفة اليوم السابع** ، بتاريخ الثلاثاء 21 /03 2017 ، على الرابط http://www.youm7.com/story/2017/3/21 /3153975 : . آخر قراءة بتاريخ : 2017/03/21 ، كما أفاد **إريك غولدستين** وهو مختص في القضايا العربية وخبيرلدى **منظمة هيومن رايتس ووتش** في مقال كتبه تحت عنوان : **ما قبل الربيع العربي: بشارات ذوبان الثلج** بقوله : " رغم أننا كمتخصصين في حقوق الإنسان نقضي وقتاً طويلاً نبحث في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا من كافة الأوجه ،..كان توقيت ومدى انتشار الثورات التي زلزلت المنطقة في عام 2011 مدهش

الدولي، ولم تكن تُعرف مآلات الحراك أو إتجاهاته ، خاصة مع التطور السريع للأوضاع . وكان السؤال المطروح : على من سيأتي الدور؟ ، أي من هي الدولة العربية التي ستعصف بها رياح الربيع العربي لاحقاً ؟..، وحتى المفاهيم التي طُرحت لتوصيف ذلك الحراك جاءت متباينة بحسب التوجهات : فوصفت ب "الثورات العربية" أو"الحراك العربي" و"الربيع العربي" . كما إختلف نعت الفاعلين بين الثوار والإرهابيين والمرتزقة والميليشيا وغيره. وكذلك كانت المواقف المحددة لطبيعة كل "ثورة" ومدى قدرتها على إحداث التغيير الحقيقي في الأنظمة السياسية.

- **صعوبة إدارة بعض الأزمات أو تسويتها أو التحكم في ديناميكيتها :**

قد يكون من المستحيل التحكم في مجريات الأحداث المترتبة عن خروج ملايين من الشعوب العربية إلى الشارع للمطالبة بالتغيير دون إدراك أو تخطيط مسبق للنتائج التي تترتب عن ذلك ، حتى تحول بعضها إلى أزمات دائمة لا أمل في تسويتها إلا بتغيير الخرائط السياسية أو تهجير الشعوب. ونفس الملاحظة يمكن إدراجها بالنسبة للأزمة في أوكرانيا ، فرغم إدراك الدول الأوروبية للطموحات الروسية، إلا أنها لم تكن تتوقع إستعمال روسيا المباشر والسريع لقوتها العسكرية لضم شبه جزيرة القرم في ساعات محدودة ، بما أخلط أوراق الدول الغربية وفرض واقع التهديد المستمر لأمن المنطقة الإقليمي بكاملها[1].

- **التداخل بين المستويات والميادين:**

فالبعد السياسي للقضايا المعاصرة أصبح ينعكس بشكل مباشر على المجالات الأخرى وبشكل يخرج الصراع عن طبيعته الظاهرة، حيث تتداخل فيه الأبعاد العسكرية والأمنية وكذلك الإقتصادية والثقافية. وهو ينعكس أيضاً على مستويات الأزمة وتوزيع الأدوار بين مختلف الفاعلين من الدول والمنظمات الدولية والمنظمات غير الحكومية والشركات المتعددة الجنسيات ، بحيث أصبح لكل فاعل دور يلعبه وفي مستوى معين وبشكل متداخل فيما بين مختلف الفاعلين[2].

ومفاجئ لنا، كما كان مفاجئاً لصناع السياسات والباحثين والدبلوماسيين والصحفيين". **منظمة هيومن رايتس ووتش ، التقرير العالمي 2012** على الرابط : https://www.hrw.org/ar/world-report/2012/country-chapters/259752 آخر قراءة بتاريخ : 2017/03/02.

[1] Revue de l'OTAN / Ukraine et Russie : les perceptions et la réalité / **Russie, Ukraine et Crimée : une crise prévisible ? Dans quelle mesure aurait-on pu prévoir la crise en Crimée ?**. https://www.nato.int/docu/review/2014/Russia-Ukraine-Nato-crisis/Russia-Ukraine-Crimea-crisis/FR/index.htm 02/03/2017.

[2] الأستاذة دامية سكينة ، نفس المرجع السابق.

والظاهر أن التداخل بين المستويات والميادين أصبح يرتبط مع تضارب المصالح ، خاصة في القضايا والأزمات المعاصرة ، مما يؤدي إلى صعوبة إدارتها أو التحكم فيها ، حتى أن إشراك مختلف الفاعلين واعتماد كافة السبل ، لم يعد يجدي في حل الأزمات أو منع الكوارث الإنسانية ، بما في ذلك استعمال القوة والتدخل العسكري لفرض السلام وتقديم المساعدات الإنسانية !.

ثانياً: ضرورة إستيعاب المفاهيم وتبيّن مضامينها الكامنة :

في حالات كثيرة تُطرح مفاهيم ضمن أطر مختلفة تأتي بشكل متواتر وفي حقب زمنية متقاربة ؛ حيث يقدم الإعلام كل يوم عبر وسائله المختلفة جملة من الظواهر الإنسانية ، ويحددها من خلال بعض المفاهيم، ويكون التجاوب معها بدرجات مختلفة ، كما يتم التعامل معها بالتحليل والدراسة بغية إدراك محتواها أو إستيعاب مدلولها. وفي هذا السياق تظهر مفاهيم عديدة في مجال العلوم السياسية والعلاقات الدولية لا يتم إستيعاب حقيقة كثير منها ، خاصة إذا كانت تحمل أبعاداً متباينة (سياسية أو إجتماعية أو إقتصادية أو ثقافية)، أو تتضمن في إحداثياتها تناقضاً كامناً يصعب فهمه ، وهو ما يظهر من خلال التفكير في المفاهيم التالية:

- الإرهاب/ الجهاد / الثورة .
- صراع الحضارات/ حوار الحضارات .
- السيادة / حق أو واجب التدخل الإنساني أو العسكري.
- سباق التسلح / التعايش السلمي .
- العولمة / الأحادية القطبية / الدولة المهيمنة / اللا قطبية.
- الهجرة غير الشرعية / الهجرة الإنتقائية.

إضافة على ذلك ، نجد أنه رغم تعدد المحاولات ، مازال هناك تردد أو عجز أو رفض للوصول إلى إجماع أو إتفاق بخصوص الكثير من المفاهيم المتداولة ، وهذا نتيجة اختلاف الرؤى والمصالح ، بل أننا أصبحنا نخضع لموجة من المفاهيم والمصطلحات التي تتناقض مع ضرورة إحترام الخصوصية الثقافية التي تتمسك بها مجتمعات كثيرة ، مثل مفهومي السيادة أو الهوية [1].

وتطبيقاً لذلك ، تبرز جملة من المفاهيم التي يتم التجاوب معها و" تبنيها " سواء في الدراسات العلمية أو في الممارسات السياسية ، لتصبح جزءاً لا يتجزأ من الخطاب الإعلامي والسياسي والتصور الفكري.

---

[1] وهو ما يعبر عنه الباحث **سعيد محمد محمد السقا** ب :"أهمية فلسفة الحضارة "، وذلك في كتاب : فلسفة الحضارة وحوار الحضارات ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، الإسكندرية ، 2013. ص : 18-20.

فبالإضافة إلى المفاهيم السابقة يمكن الإشارة إلى مفاهيم أخرى تكرّست في ثقافتنا السياسية وأصبحت راسخة فيها مثل: الدول النامية والدول المتطورة ، العالم الثالث ، الدولة المدنية ودولة الحكم الراشد ، الدولة الفاشلة والدولة المنهارة أو أشباه الدول[1]. حيث يظهر سعي الكثير من الباحثين الغربيين نحو الترويج لإعتماد تصنيف خاص للدول وذلك في سلم محدد للمستويات : سواء كان ذلك من خلال الإقتراب الإقتصادي: فيتم تقسيم الدول بحسب مستواها الإقتصادي أو درجة الرفاهية لديها إلى: متطورة أو نامية أو متخلفة ..، أو وفق المنظور السياسي فتوصف الدول حسب درجة صلابة بناءها المؤسساتي والسياسي فتكون : قوية ومستقرة ، أو ضعيفة وفاشلة أو منهارة أو حتى أشباه دول..، وتصنف دول أخرى وفق تجاوبها مع أطر خاصة تحددها كأنماط أونماذج للدول الديمقراطية فتكون دول مارقة أو دول مدنية أو دولة قانون ، أو حكومات راشدة !.

والملاحظ هو تبني بعض الدارسون في مجال العلوم السياسية والعاملون في ميدان السياسة والإعلام هذه التصنيفات دون أي نقد أو تمحيص لها ، وعدم إدراك بأن تقسيم الدول وفق الأنماط السابقة هو في مجمله حكم تقييمي ينم عن إتجاه فكري محدد يخدم توجهاً خاصاً يرتبط بظروف زمانية ومكانية محددة .

وإذا كانت جل هذه المفاهيم قد نالت قسطاً وفيراً من الدراسة والبحث في الجامعات ومؤسسات البحث العلمي على اختلاف مستوياتها ، سواء في الدول العربية أو في غيرها من مراكز البحث في العالم ، إلا أن معظم هذه الدراسات والبحوث العلمية كانت تتم بالإستناد إلى علم المناهج وما يقدمه من مدارس ونظريات يطرحها لنا الفكر الغربي ذاته الذي يقدم لنا هذه المفاهيم . حيث توظف المدارس والنظريات التي تحاول تفسير هذه المفاهيم ولكن ضمن إتجاه معرفي أو بنيوي معين تفرضه طروحات المدرسة المثالية أو الواقعية أو الليبرالية وغيرها من المدارس والنظريات التقليدية أو المُطورة لها.

---

[1] تبنى مفهوم الدولة الفاشلة العديد من منظري الدراسات السياسية مثل إدوارد نيومان Edward NEWMAN وأدريان رايس Adrian J. REYES وهما باحثان أمريكيان يعملان في مركز البحوث الأمريكية RAND.

وقدم وليام زرتمان William ZARTMAN مفهوم الدول المُنهارة : Collapsed States في كتابه :

William ZARTMAN: 1995; Collapsed States, The Disintegration and Restoration of Legitimate Authority. Lynne RIENNER Publishers. USA.

كما طرح روبرت جاكسون Robert H. Jackson مفهوم أشباه الدول: States Quasi في كتاب صدرله عام 1993 بعنوان:" أشباه الدول: السيادة ، العلاقات الدولية والعالم الثالث . Robert H. Jackson, Quasi-States: Sovereignty, International Relations, and the Third World. Cambridge University Press.

إن الإعتماد المطلق على هذه الإتجاهات المعرفية يمّثل إشكالاً حقيقياً بالنسبة للمجتمعات الأخرى، خاصة أن هناك بعض المفاهيم التي تُطرح علينا دون أي إعتبار لإختلاف سياقها التاريخي وبعدها الإجتماعي والحضاري بين المجتمعات.

إن الإختلاف بين المنطلقات والأبعاد التاريخية والحضارية في المجتمعات ، يؤكد الضرورة الملّحة لتحديد المفاهيم وضبطها في تعاريف تبين المقصود بها وتبين خصائصها وما يميزها عن غيرها من المفاهيم المشابهة ، لأنه إذا تعذر التوصل إلى تعريف دقيق يجمع بين الخصائص والمحددات المرتبطة بالمفاهيم المطروحة ، فإن ذلك ينعكس بشكل مباشر على هذه المفاهيم ، حيث تتباين وجهات النظر بخصوصها وتختلف محدداتها بحسب المصالح والتوجهات. [1].

وعلى ذلك ، نستنتج أن إيجاد مدلولات علمية للمفاهيم والمصطلحات المطروحة ، أصبح يمثل حاجة معرفية أساسية تساهم في أي بناء فكري يسعى لتحقيق إرث فكري إنساني مشترك ، خاصة عندما يتم إستعمالها بشكل ممنهج في الإطار الأكاديمي ؛ مع التأكيد على أن نجاعة أو صحة أي مفهوم تتجسّد من خلال قدرته على ترجمة الواقع بشكل صحيح ومتساوي في كل البيئات التي يستخدم فيها أو يطبق عليها.

استناداً على ماسبق يمكن طرح التساؤل التالي: أليس من الأنسب اللجوء إلى أدوات تحليل أخرى أكثر شمولاً واتساعاً بحيث تتجاوب مع تركيب وتعقيد الواقع الدولي واعتمادها كإطار للتحليل النقدي، بحيث نجمع فيها بين عدة مجالات من العلوم لتحليل الظواهر القائمة ؟.

في هذا الإطار ، تبرز اليوم أهمية الدراسات الابستمولوجية خاصة في مجال العلوم الإنسانية من خلال ما تقدمه من أدوات معرفية وتحليلية تُسهِّل في كثير من الحالات إستيعاب وإدراك الظواهر والقضايا بأبعادها الحقيقية والكلية .[2]. وقد تكون هذه الدراسة لبنة أخرى لدعم هذا النهج من الدراسات ، ليس في مجال

---

[1] ويمكن بهذا الخصوص التنبيه إلى إستخدام وسائل الإعلام المختلفة بما فيها العربية . وإن كان دون تعمُّد . ، إختصار تعبير " تنظيم الدولة الإسلامية في العراق وسوريا " بكلمة "داعش" أو" الدولة الإسلامية " ، وذلك تجاوباً مع الخطابات السياسية المطروحة في هذا الإطار ، الأمر الذي ينعكس سلباً على صورة الإسلام والمسلمين في العالم .

[2] أول من إستخدم لفظ الإبستمولوجيا هو المفكر الإنجليزي جيمس فريديريك James Frederick Ferrier ، في كتاب Instituts of Metaphysics الصادر له عام 1854 ، حيث ميز فيه بين فرعين أساسيين من فروع الفلسفة هما الإبستمولوجيا والأنطولوجيا. وهو مركب من الكلمة اليونانية episteme التي تعني العلم أو المعرفة العلمية ، و logie ، وهي في اليونانية logos . أي النظرية أو الدراسة النقدية. نقلاً عن : حسن عبد الحميد ، نظرية المعرفة العلمية (الإبستمولوجيا) ، ترجمة خاصة لكتاب روبيربلانشيه . مطبوعات جامعة الكويت ، 1986، ص: 7.

الدراسات السياسية وحدها، بل في غيرها من المجالات التي ترتبط بنفس خصائص التعقيد والتركيب في الظواهر والمفاهيم. فمع تطور المعارف وتعقّد الظواهر أصبحت الضرورة العلمية تفترض أن تكون المعرفة مرتبطة بالواقع في مختلف محدّداته ، وعليه يطمح العلم أن تحقق له الدراسة الإبستمولوجية ذلك البعد الأساسي ، أي فهم الظاهرة بتحليلها تبعاً لمنظور الأشخاص الذين يعيشونها.[1]

وقبل توضيح أهمية الإبستمولوجيا في تحقيق التحليل المركب للقضايا والمفاهيم المطروحة في العلوم السياسية والعلاقات الدولية ، يلزم الإشارة بإيجاز إلى مفهوم الإبستمولوجيا وعلاقته بنظرية المعرفة وعلم المناهج و أهمية الترابط بينهما لتحقيق التحليل العلمي المتكامل.

ثالثاً : الإبستمولوجيا: نظرية المعرفة وعلم المناهج لمواكبة التحليل النقدي للبحث العلمي:

إن محاولات البناء الإبستمولوجي في مجال العلوم الإنسانية تدخل ضمن تطور الدراسات الإبستمولوجية وترتبط بنتائج التراكم الكمي والكيفي في حقل المعرفة ، وارتباط ذلك بتطور ميدان فلسفة العلوم و ما يقدمه من إتجاهات جديدة تظهر في مختلف مجالات العلوم بما فيها العلوم السياسية والعلاقات الدولية ، ويبرز ذلك خاصة في ظل عولمة المفاهيم المتداولة.

حيث تبرز أهمية الإبستمولوجيا باعتبارها ذلك القسم من الفلسفة التي تهتم بالمعرفة العلمية ، حيث تركز على صلاحية العلوم كنمط للمعرفة من خلال دراسة الأسس والمعايير التي تستند إليها العلوم[2] . كما يعتبر المختصون أن الإبستمولوجيا تقدم " الدراسة النقدية للمبادئ أو الفرضيات والنتائج العملية ، الهادفة إلى بيان أصلها المنطقي لا النفسي وقيمتها وأهميتها الموضوعية" [3] ، وذلك كما وردت في القاموس الفرنسي La ROUSSE ومعجم المفكر الفرنسي أندري لالاند André LALANDE تحت عنوان: إبستمولوجيا Epistémologie ، حيث يجب أن نميز بين نظرية المعرفة : Théorie de la connaissance والإبستمولوجيا، باعتبار هذه الأخيرة أداة هامة ومدخلاً أساسياً لتحقيق نظرية المعرفة ، أي أنها " نقد المعرفة العلمية " [4].

---

[1] موريس أنجرس: منهجية البحث في العلوم الإنسانية .تدريبات عملية . ، دار القصبة للنشر، الجزائر، ط2 ، 2006 ، ص 64.

[2] Jean Dhombres, Angèle Kremer- Marietti, **L'épistémologie : état des lieux et positions**. Ellipses Edition, Paris, 2006. P : 5-6.

[3] حسب تعريف أندري لالاند André LALANDE في : محمد وقيدي ، ما هي الإبستمولوجيا ؟ ، دار الحداثة ، بيروت ، الطبعة1 ، 1983 ، ص : 12.

[4] ماهر عبد القادر محمد على : فلسفة العلوم (قراءة عربية) ، سلسلة قضايا الفكر العربي المعاصر ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ،ط1 ، بيروت ، 1997. ص : 21- 25.

وفي نفس السياق يجب التمييز بين الإبستمولوجيا وعلم المناهج METHODOLOGIE ، حيث أن علم المناهج هو دراسة وصفية في حين أن الإبستمولوجيا هي دراسة نقدية ، وإن كان التمييز هنا لا يعني الفصل بين المجالين ؛ بل يلزم التأكيد على أن الترابط بينهما ضروري : فالإبستمولوجي لا يمكن أن يستغني في دراسته النقدية عن دراسة مناهج العلوم ، لأنه قبل النقد يحتاج إلى معرفة مناهج العلوم التي تدرسها[1]

إن الحرص على الإستفادة وبشكل متوازي من الإبستمولوجيا وعلم المناهج مسألة هامة ، وإن كان علم المناهج يستخدم بشكل أساسي في الدراسات الأكاديمية المعاصرة ، إلا أن التكامل بين المجالين يبقى ضرورياً ؛ فالإبستمولوجي لا يمكن أن يتجاوز في دراسته النقدية البحث في مناهج العلوم المستخدمة ، لأن علم المناهج يقدم الدراسة الوصفية في تحليل المعارف العلمية ، ثم تقوم الإبستمولوجيا بنقد هذه التحاليل بهدف إستخلاص المبادئ الخاصة بالتفكير العلمي.[2] وهو ما يؤكده مجموعة من الباحثين المختصين في هذا المجال مثل غاستون باشلار Gaston Bachelard وجون بياجيه Jean Piaget ، حيث يعتبران أن التفكير الإبستمولوجي يبدأ عندما تكون هناك أزمات في العلوم ، ويربطان بين وظيفة الباحث أو العالم وبين الإبستمولوجيا، لأن الباحثين المختصين في ميادين معرفية مختلفة هم الذين يقدمون للإبستمولوجيا المعطيات التحليلية اللازمة . وبهذا الخصوص يرى باشلار أن: " مهمة الإبستمولوجيا تكون متابعة أثر المعارف العلمية في بنية الفكر ، وكذلك إبراز القيم الإبستمولوجية ؛ أي بيان دلالة الإكتشافات العلمية من الناحية الثقافية والنفسية ".[3]

إضافة إلى ماسبق ، تسمح لنا الدراسة الإبستمولوجية بإمكانية تجاوز الشروط الظاهرية للدراسات الإنسانية مثل القواعد التي تتطلب تكرار الظاهرة وتوقع نفس النتائج وضرورة تطبيق نفس التجربة والتشخيص وغير ذلك ، لأن الظواهر الإنسانية المختلفة وإن تكررت في ظاهرها (وفق إعتقاد التاريخ يعيد نفسه) ، إلا أنها لا تتميز بنفس دقة الظواهر السابقة مثل الظواهر الفيزيائية ، لأنها تخضع لعوامل متشابكة ومعقدة : فالظاهرة الانسانية والسياسية خاصة ، ليست مجرد سلوك يدفع فيه المنبه للإستجابة ، إنها وليدة عناصر مترابطة قد يكون السلوك سواء كان فعلاً أو رد فعل أحد حلقاتها المتسلسلة ، فهي ليست سلوكاً منفرداً. كما أن الباحث في العلوم الإنسانية عموماً بما فيها العلوم السياسية لا يمكنه تحقيق الموضوعية المطلقة ولا

[1] نفس المرجع السابق ، ص : 88.

[2] بخصوص التمييز بين مصطلح الإبستمولوجيا ونظرية المعرفة ، يمكن الرجوع لكتاب الدكتور عيسى عبد الله : في نظرية المعرفة ، أكاديمية الفكر الجماهيري ، ليبيا ، 2011 ، ص : 11- 16 .

[3] محمد وقيدي ، نفس المرجع السابق ، ص 12 – 13.

يمكنه التجرد المطلق من العواطف . ورغم ذلك تبقى هذه العلوم تصبو إلى تحقيق درجة مقبولة من الموضوعية والصفة العلمية.

رابعاً : الإستفادة من التحليل الإبستمولوجي المركب في مجال العلوم السياسية والعلاقات الدولية.

استناداً على ما سبق ، تبرز ضرورة الإهتمام بدور الإبستمولوجيا في الدراسات السياسية ؛ خاصة في ظل تواتر المفاهيم والمتغيرات التي أصبحت متداولةفي العلاقات الدولية ، والتي يكتفي كثير من الباحثين بتحديد إطارها المعرفي والتحليلي بما هو مدرج في حقل العلوم السياسية والعلاقات الدولية من تحاليل نظرية قائمة ، حيث نلاحظ إعتماد أغلب الدراسات والبحوث على الإستخدام الآلي وبشكل عفوي لعلم المناهج، والإكتفاء بما يتضمنه من مدارس ونظريات ومناهج واقترابات تستخدم في تحاليل مبسطة للظواهر والمفاهيم السياسية ، رغم ما تتسم به هذه الظواهر والمفاهيم من تركيب وتعقيد ، وذلك بشكل قد يجردها من محتواها الإجتماعي والتاريخي أو الأنثروبولوجي .

فإذا كانت الإبستمولوجيا تقدم لنا تقييماً أو تحليلاً نقدياً للمعارف التي نكتسبها ، وتسمح لنا باختبار فعّالية التحاليل التي ننطلق منها في وصفنا ودراستنا للظواهر السياسية المختلفة لأنها تكشف الخلفيات وتحدد التداعيات ، **فإنه يكون من المفيد تتبع العلاقة بين الدراسات الإبستمولوجية الحديثة المطبقة في العلوم الإنسانية ، وارتباطها بالمتغيرات المطروحة في المجتمعات المختلفة ، مثل مفاهيم الديمقراطية وحقوق الإنسان والعولمة وما يتبعهما من متغيرات مختلفة كالتنمية السياسية أو الأمن الإنساني أو غيرها ، وكذلك الأمر بالنسبة لإشكالات الهوية والثقافة والصراع أو الحوار الحضاري .. .**

إن البحث في مجال العلوم السياسية والعلاقات الدولية باستخدام التحليل الإبستمولوجي المركب يعطى أفقاً أوسع للبحث العلمي الدقيق والمتكامل ، ويقدم تحليلاً مختلفاً للظواهر القائمة في العلاقات الدولية، وذلك بدراستها من مستويات عديدة وميادين وأشكال ومراحل مختلفة : حيث يتم التركيّز فيها على المستويات التي تتجسد فيها هذه الظواهر التي نسعى لدراستها (محلية ، جهوية ، إقليمية أو دولية وعالمية) ، كما يُحدد فيها الحجم الحقيقي للظواهر (أي أبعادها الإقليمية أو الدولية والوزن الذي تمثله بشكل فعلي أو حقيقي) ، وكذلك محتوى هذه الظاهرة الحقيقي (ويكون ببحث جوانبه الخفية أو المعلنة ، وجوانبه الشكلية أو غير الشكلية)، وفي نفس الإطار يسمح لنا بمعرفة المجالات و الأبعاد التي تتجسد فيها الظواهر من خلال

تفاعلها وتمازجها مع غيرها من الظواهر : (إستراتيجية أو أمنية أو إقتصادية أو ترتبط بمسائل الهوية أوالثقافة غيرها...) "[1].

ويتحقق التحليل المركب كذلك مع الإلتزام بإدخال كافة الفاعلين في مجال العلوم السياسية والعلاقات الدولية في عملية إعادة البناء المعرفي ، وضرورة إشراكهم بصيغ مختلفة ومتوازنة في تحليل مظاهر التفاعلات الناتجة عن حركية المجتمع الدولي الدائمة ، خاصة مع إستخدام هؤلاء الفاعلين كأدوات ومتغيرات تنعكس عليها بشكل مباشر نتائج التحولات الجيوستراتيجية في النظام الدولي .

ومن الناحية العملية يبقى التحليل المركب ضرورياً لأنه يستند على الجمع بين عدة مناهج أو عدة علوم يتم إختبار نجاعتها في تفسير الظواهر وتحليلها إبستمولوجياً ، وهو ما يقدم حلاً تفسيرياً ناجعاً يتوافق وطبيعة الظواهر المُركبة والمُعقّدة. ويمكن طرح مثال على ذلك من خلال الظواهر التي تعرفها الكثير من المجتمعات: مثل مشكلة الغذاء التي ترتبط بقضايا أو ظواهر أخرى : الجفاف والتصحر والحروب وتزايد السكان والنمط الزراعي وغيرها ، وهي تتطلب دراسة تجمع عدة علوم : جغرافيا الطبيعة والديموغرافيا والتكنولوجيا.

وكذلك بالنسبة لظاهرة الإرهاب التي ترتبط بقضايا أخرى مثل : الصراعات السياسية ، التدخل الأجنبي، التطرف الديني، الهجرة السرية ، إنتشار وتجارة الأسلحة بما فيها الممنوعة ، الجريمة المنظمة ، المخدرات.. وغيرها. وفي نفس الوقت ترتبط ظاهرة الإرهاب بمفاهيم مثل الأمن المجتمعي والأمن الإنساني ، وتحمل أبعاداً سياسية واستراتيجية وعسكرية واقتصادية وعلمية وثقافية..

إن الحاجة إلى الإهتمام بالدراسات الابستمولوجية تتطابق مع الاتجاهات الحديثة في العلوم السياسية ونظريات العلاقات الدولية و السياسات المقارنة ، خاصة إذا تم ربطها بمجالات مختلفة من التخصصات في العلوم الإنسانية ، مثل علم التاريخ و الدراسات الاجتماعية والدينية والاقتصادية والنفسية أيضا ، بما فيها من تخصصات جزئية مثل الدراسات الخاصة بفلسفة التاريخ وبعلم النفس وعلم الأجناس والدراسات السكانية أو الديموغرافيا ، باعتبارها أطر إبستمولوجية للتحليل العلمي المتكامل.

---

[1] الأستاذة دامية سكينة ، مرجع سابق.

خاتمة :

إن الإدراك الصحيح والمتكامل للظواهر المختلفة في العلاقات الدولية ، والتأكيد على وجوب إستيعاب المفاهيم وتبيّن مضامينها الكامنة ، يتحقق من خلال التحليل الإبستمولوجي المركب كإطار فكري يسمح بتحقيق الدراسات العلمية الصحيحة والمتوافقة مع اختلاف البيئات والمجتمعات وتطورها المستمر. كما يسمح بتقديم أطر تحليل تشمل مختلف المفاهيم والقضايا التي نتفاعل معها باعتبارها متغيرات أصيلة أو تابعة لمعادلات حياتنا السياسية ، سواء على المستوى الوطني أو القومي أو الدولي .

إن تحليل المفاهيم ضمن بيئاتها المجتمعية وربطها بالظواهر المؤطرة في حجمها وأبعادها الحقيقية، يجسد توجه الدراسات الإبستمولوجية الحديثة ، وهو يرتبط بالحاجة الملحة إلى تطوير مناهج البحوث الخاصة بالقضايا والمشاكل الإنسانية الراهنة مثل تنامي الجريمة المنظمة والإرهاب أو قضايا البيئة والأمن الإنساني والمجتمعي وغيرها.